

التعادلية في الفكر والحياة عند النورسي

أديب إبراهيم الدباغ
المركز الأكاديمي للدراسات والبحوث
استانبول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ
وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن: ٧-٩).

١- تعادلية الخلق:

خلق الله تعالى "الكون" على درجة عالية من الاستعداد البنيوي لاستقبال الإنسان واحتضانه، فالإنسان صنو الكون وعديله في ميزان الخلق. فهو - أي الكون - من غير الإنسان بيت خاو لا تُدرك له غاية، ولا يُعرف له هدف.

والإنسان يظل طاقة معطّلة ما لم تشتعل قواه الفكرية، وتنفعل طاقاته السكونية، وتهتز أحاسيسه ومشاعره، ويلتهب خياله، ولتحفيز هذه المكونات الخامدة، وإيقاظ هذه الاستعدادات الفطرية النائمة، فُذِفَ به من عِلِّ إلى خِصْمِ الكون المتلاطم الموج بالأحاجي والطلاسم والغيبات والمغيبات، لِيُمْتَحَنَ فيما أوتيه من هذه المكونات، فتشروع بالعمل مدفوعةً برغبة ملحة بالمعرفة، وبفضول استكشافي للغوامض والمخفيات وبردود أفعال إزاء تأثيرات الجلال والجمال المتجليين من جوانب الكون، فلا يبقى محكوماً عليه بالجوع المعرفي إلى الأبد.

فالعدل الإلهي المطلق قضى أن يحتلّ "الكون" إحدى كفتي ميزانه، والإنسان كفته الأخرى ليعتدل ميزان الخلق، فهذه "التعادلية" بين الكون والإنسان هي المنطلق الذي ينطلق منه "النورسي" في كل موازينه الفكرية والأخلاقية في رسائله "رسائل النور".

٢- الكون والإنسان في شريعة القرآن:

و"النورسي" هذا الإنسان المعذب بقضية "الإيمان" يعتمد "القرآن" كأعظم عناصر الوجود فاعلية في الوجدان البشري، حيث يرفع الإنسان من حياته الدنيوية إلى مستوى عالٍ من الكونية والإنسانية، وهو بذلك يشكل وحده ميزاناً عظيم الدقة لا يسع الإنسان إلا الانحناء أمام عظمتها اللامتناهية، آخذاً بنظر الاعتبار ضرورة أن يشكل نفسه وفكره حسب ما تمليه عليه موازينه.

وكما للقرآن موازينه وشرائعه فإن للكون كذلك موازينه وشرائعه - كما يقول النورسي - ولتركيبة الإنسان البنيوية والفكرية والوجدانية موازينها وشرائعها، فالعدالة التي ينشدها الإنسان ويلح في نشدانها تكمن في هذه التناسقية والانسجامية بين الشرائع الثلاث ذات المصدر الإلهي الواحد.

٣- كوكب الأرض في الميزان الكوني:

ولا يفتأ "النورسي" ومن منطلق مفهوم الناموس التعادلي الساري في جزئيات الكون وكلياته يكثر من التوكيد على أن "الأرض" عديلة الكون في ميزان الخلق، وهي رأسه وناصيته على الرغم من ضئالة حجمها إذا قيس بحجم الكون، ولذلك اختيرت للإنسان سكناً، وحاضنة لإبداعاته الفكرية والوجدانية وترقياته الإنسانية والروحية غير المحدودة، هذه الترقيات التي أهلتها لمناطحة الكون والتحرش به، وإتيان بعض كواكبه مدفوعاً بطموح عجيب، وفضول لا يُقاوم للتعرف عليه والوصول إلى أقاصيه. فالأرض عديلة السموات السبع في ميزان الخلق بدليل أن القرآن - كما يقول النورسي - لا يذكر السموات إلا ويذكر الأرض معها إشارةً إلى أهميتها المركزية في المعادلة الكونية.

وعلى "الإنسان" الذي يمثل الطرف الأهم في التعادلية الكونية أن يضرب في معارج الرقي حتى يغدو كوني الآفاق وفي الوقت نفسه سبّاراً لأغوار "الأنفس" كما يدعو القرآن، وهذه التعادلية بين "الأنفس والآفاق" هي إحدى المحاور المهمة التي يدور عليها فكر "النورسي" رجل القرآن في رسائله "رسائل النور".

٤- العدل الإنساني:

إن "القرآن" و"الكون" يدوران في دواخل الإنسان المسلم مولدين فيه أعظم خواطره وأكد أفكاره، وأيُّ مسلم واع لا يستطيع أن يقع على مبرر لوجوده الخاص من دونهما، أو يطمع أن يكون عدلاً في حكمه مع نفسه أو مع الآخرين من دون أن يأخذ بنظر الاعتبار ما ينعكس منهما من صور العدل والاعتدال، وما يبثانه في العالم من

موازن الدقة البالغة من الضبط الهندسي الذي لا يُسْتَطَاعُ إلا من صاحب خالق الكون ومنزل القرآن، فناموس العدل الكوني والقرآني يشكل قوة دافعة باتجاه البناء العدلي الداخلي عند المسلم فيقيم حياته الخاصة والعامة على أسسه وقواعده، فلا يُظَلِّمُ ولا يُظَلَّمُ.

إنَّ الشرائع التي عرفها الإنسان منذ "حمورابي البابلي" وحتى هذا اليوم إنما هي سجل كَشَّاف لتاريخ النفس البشرية في معاناتها من الظلم من جهة، ومن تَوَقُّها الدائم إلى "العدالة" من جهة أخرى، فغياب "الوعي الأخلاقي" في أي مجتمع من المجتمعات يعجل بانهدام أخلاقيات "العدل" ويدخل المجتمع في فوضوية أخلاقية تعمل على تغييب الفكر العدلي ليس من منظومة الأخلاق وحدها بل من كل جوانب الحياة التي لا تستقيم إلا من خلال ميزان عدلي صارم، فلا جَرَمَ - والأمر كذلك - أن نرى "النورسي" يولي اهتماماً كبيراً لاسمه تعالى "العدل" من بين أسمائه الحسنی، فهو يرى أن تجليات أنوار هذا الاسم العظيم في الحياة وفي الفكر قد أرسى في الأذهان قواعد ميزانٍ هندسي يأخذ منه الإنسان على قدر طاقته، وهذا الميزان يسري في جزئيات الكون وکلیاته، وبه تعدل الحياة، ويستقيم الفكر، ومن وحيه تنبثق شرائع العدل والحكمة.

٥- العدل بين التجريد والتطبيق:

إنَّ هناك وحدة باطنية مشتركة بين الجوهر الإنساني والعنصر الكوني كما تؤكد "رسائل النور" ومن تفاعلها وتفعيلها تتدفق أعظم دورات الحياة الحضارية في وحدات زمانية متتالية، يشكل الإنسان فيها الجزء الأهم والأثقل في الميزان الكوني. إننا نعظم من شأن "العدل" من حيث كونه نازعاً أخلاقياً تجريبياً، ولكننا نغفل عن كوننا لا نستطيع رصد عياناً إلا من خلال الحياة وبالأخص حياة الإنسان بجزئياتها وکلیاتها، ولا سيما عند أولئك الذين يملكون ذهنًا رياضي الآفاق، فهم أقدر الناس على ممارسة "التعادلية مع أنفسهم ومع الآخرين وبشكل عفوي لا تكلف فيه. فإذا ما عاش "العدل" بين الناس كقيمة أخلاقية عالية لا غنى لهم عنها ازدادت قدسيته، وعظم شأنه، وظهرت مردوداته الإيجابية على معاشهم الدنيوية، ولم يعودوا يشعرون بانفصاله عن دورة الحياة، وأنه لا يزيد عن كونه قيمة نقابية تجريدية عائمة في فراغ أخلاقي ليس له وجود تعاملي في واقع الحياة.

إنَّ أجمل لحظات الإنسان وأكثرها إثارةً شُعُورُهُ بأنه على وفاق مع ناموس الكون العدلي الساري في الأشياء وفي الإنسان، وأنه والكون من طبيعة واحدة تحكهما شريعة عدلية واحدة، وأنَّ من أسْمَى أهدافه السعي للتوافق والتطابق مع هذا الناموس الذي به تعتدل الحياة ويستقيم الإنسان.

وعندما يصل الإنسان هذا المنعطف التوافقي والإنسجامي ينتقل إلى حياة جديدة عمادها العدل وجوهرها الحق، فيصبح عامل بناء في مجتمعه والمجتمع الإنساني الكبير، فيغدو مشاركاً بصنع نسيج "العدل" العالمي الذي يفتقر إليه عالم اليوم.

٦- الإنسان بين الوجود والعدم:

ويظلُّ الإنسان موضع تجاذبٍ حادٍّ بين دواعي "الأبدية" ودواعي "العدمية" حيث تربطنا بعالميها صلات ووشائج لا تنتهي إلاَّ بانتهاة الحياة، فما بين عالمي الوجود والعدم حاجز شفاف ولكن لا يقوى على اختراقه إلاَّ أصحاب القوى الإدراكية العالية من الذين يكافحون من أجل أن يرسوا موازين العدل على كوكب الأرض.

إنَّ من أعظم الظلم أن يضطر البشر إلى قضاء حياتهم بهذا المستوى الفاتر من "اللابالية" بأيِّ من العالمين سينتهي إليه مصيرهم كما يؤكد "النورسي"

فمصير الإنسان يؤرق "النورسي" حيث يراه ينحدر بشكل مخيف إلى عالم مرعب من الظلم والظلام، إنَّ انحداره يتتابع ولا يتوقف، وهو في كل مرة يرينا شكلاً مختلفاً من صور السقوط والانحدار نحو الهاوية التي يشارك هو نفسه في تعميقها، فشقاؤه يكمن في عدم قدرته على استيعاب "المنظومة العدلية" في القرآن والكون، وفي عدم استقراء ما في ذاته من هذا النزاع العدلي نفسه، وبذلك يحرم نفسه من أعلى درجات الفكر وأسْمَى ما وصل إليه العقل فيما يخص مكانته الرفيعة في الكون والقرآن.

إنَّ شغف الإنسان بالعدالة يجعله يطلب ويلحف بالطلب: أروني العدالة في أيِّ شُعْبٍ من شعاب الأرض، وإلاَّ فقدتُ إيماني بالإنسان وتحولتُ إلى طاقة تدميرية تدمر كل شيء ثم تدمر في الأخير نفسها.

إنَّ أركان المسلم الركينة بدأت تتداعى وتنهار منذ تناسى أنه "وحدة كونية" مدوّنة بالأساس لتتساق مع موازين التعادلية الكونية والقرآنية. ومنذ تغافل عن مثاليته الأخروية، وغاب عن أفق تفكيره العيش في سبيل الخلود. فلم يدمج روحه وإرادته بروح العدل المطلق وإرادته.

وعلى المسلم اليوم أن يعالج "تضادَّه الروحي" وانقسامه بين جواذب "الأبدية" و"العدمية"، فيهب إنسانيته بتمامها إلى نازعه الأبدي الفطري، بإرادة واعية حرّة يحدوه إلى ذلل هدف أخلاقي متين، وإلاّ تعدّر عليه أن يمارس أهداف وجوده من غير أن يتصل بسبب ما بالوجود الإلهي الأعظم، فأئى شائبة عدمية تشوبه تحول بينه وبين هذا الاتصال المرجو.

وإذا ما أحسَّ الإنسان المسلم - بصدق وعمق - بأنه جزء من هذا التوازن الكامن في الوجود، وبأنَّه واحد من هذا الإيقاع الأزلي - الأبدي بين الطاقة المولدة لفكرة العدل في العالم وبين مادة العدل على الأرض فإنَّ هذا الإحساس سيمنحه بعداً كونياً مشجعاً يحمله على أن يكون واحداً من المكافحين من أجل أن يسود العدل ويتربع على عرش العالم.

٧- العدل مسألة كونية:

لقد أدرك "النورسي" للوهلة الأولى وبنازعه الفطري أنَّ مشكلة "العدل" ليست بمشكلة اجتماعية محدودة الأطر، يمكن حلُّها اجتماعياً، بل هي قضية كونية ذات ارتباط بحقائق الكون، فما تبحث عنه البشرية وتتوق إليه لا بدُّ وأن يكون موجوداً فوقها غير أنه على مقربة منها، وأنَّ ما يصبو إليه العالم لا بد وأن يكون موجوداً خارج العالم ولكنه في متناول يده، وأنَّ الذي يجعل الإنسان يحسُّ بالحاجة إليه لا بدُّ وأنَّ يكون دافعاً كونياً علوي المصدر لا يستطيع له دفعا، فشعوره بهذا الدافع يحمله على استقصاء المشيئات العلوية والتوافق معها في الضابط العدلي الذي يتسلطن على العالم بأسره، فلا يشذ عنه سوى الإنسان ذي الإرادة الحرة إذا ما أراد ذلك.

ومنذ أن عاش المسلم في زاوية من زوايا وجوده، منكفئاً فيها على نفسه، فقد بصيرته الكونية، ولم يعد يرى كونية المجردات من الأفكار والقيم، فهدم حماسه لها، ورغبته فيها، وتقديسه لها، وأخذ إنَّساعه القرآني الهائل ينحسر تدريجياً مخلفاً وراءه مواتاً نفسياً وبواراً روحياً وضحالة ذهنية.

فأئى فكر عندما يُحرَّم من خفقان نبض كوني يزيد في اشتعال حياته، وخصب عطائه، يذوي سريعاً، ويموت قبل أن يكمل دورة حياته، وما هذه المئات من ملايين المسلمين الباحثين بشغف عن "العدل" حتى من قبل لقمة العيش، تعاني ما تعانيه بسبب عجزها عن استنهاض إرادة فهيمة وبصيرة نافذة، ترى في الكفاح من أجل "العدل" ليس بكفاح من أجل قيمة اجتماعية محدودة الأثر، بل من أجل قيمة كونية مقدَّسة يريدها الكون، ويلحف بطلبها.

إنَّ "الجنس البشري" يشعر بأنه مثلوم الشرف لعجزه عن إرغام الأقوياء المتحكمين بمصائره على الاحتكام إلى "العدل" فيما يأتونه من أحكام، ويرسمون له من سياسات فيشعر بأنه فاقد لتلك اللحظات المضيئة التي يكون فيها على وفاق مع قاداته ومع نفسه.

إنَّ مَنْ لا يملك نضجاً روحياً غير عادي كيف يستطيع أن يرى النظام الأخلاقي المتغلغل في مفاصل الوجود، فينحاز إليه باعتباره جزءاً منه ويواصله ذهنياً وعملياً. ويسهم معه في إرساء قواعد العدل الإلهي على الأرض.

إنَّ طبقات الأقوياء تنحطُ تدريجياً عندما تصمُّ آذانها عن سماع صوت الإلهامات الكونية الأخلاقية التي يشكل "العدل" فيها أعلا قيمها، إنَّ هذه الإلهامات هي نوع من التربية الروحية التي لا غنى عنها للحاكم والمحكوم على حد سواء.

٨- الخطرون على الحضارة:

إنَّ أخطر أنواع الإنسان على الحضارة هم أولئك المقيدون بأغلال الحضارة نفسها، إنهم غير مستعدين ليتعلموا شيئاً عن "العدل الكوني" لم يكونوا قد تعلموه حتى هذا اليوم، إنَّ هذا الفهم عن الكون قادر أن يغذو روح الخليفة جمعاء بالعدل والإنصاف.

صحيح أن هؤلاء الخطرين على الحضارة عمليون وأقوياء الإرادة ولكن قلوبهم تطفح بكبرياء كاذبة فيحسبون أنهم غارقون في معرفة "الإنسان" و"الكون" و"الحياة"، ولكنهم في الحقيقة لا يعرفون إلا النزر القليل عن أخلاقيات الأكوان التي من دونها يظل دنس الظلم يدنس ظهر الأرض، فلا تطهر منه إلا عندما يعود "العدل" بثقله الكوني يغطي وجه الأرض من جديد، وهذا ما يسعى إليه العدليون الكونيون من بني الإنسان.

٩- العدل الأخروي:

إننا لا نستطيع أن نعالج اعوجاج الفاني بفانٍ مثله، ولا قصور الدنيوي بدنيوي مثله، فالفاني لا تُرى "لا شيءته" إلا من خلال مشكاة الخلود، والدنيوي لا يُرى هباؤه، وانعدام وزنه إلا إذا أطللنا عليه من نافذة الآخرة.

إنَّ الذين فارقوا الدنيا وهم غرقى في لجج الظلم، كيف يشعرون بالنصفة حتى ولو أُعطيت لهم الدنيا بأسرها كفاء ما وقع عليهم من ظلم؟ وكيف لمصدوعي الفؤاد، ولمبلي الأرض بالدموع، أن يأخذوا ثمن قطرة واحدة من دعمهم ولو ملأوا أكفهم ملاءً

الأرض ذهباً؟ إنَّ كل هذا لا يعدو أن يكون قبضة ربح، وَجُمَع وَهَمٌ، إنَّ ما يريدونه هو شيء من وراء هذا كله، إنهم يريدون ما يعطيهم إياه الخلود، وما تدمم به الآخرة، إنهم يريدون العوض من ربِّ السموات والأرض الذي خلقهم وكَرَّمهم، وأَشْرَقَ على أرواحهم جلال العدالة، فعشقوها ولكنهم افتقدوها، وأرادوها ولكن حيل بينهم وبينها. "نعم، إنَّ العدالة شقان أحدهما إيجابي والآخر سلبي.

أما الإيجابي فهو: إعطاء كل ذي حق حقه، فهذا القسم من العدالة محيط وشامل لكل ما في هذه الدنيا لدرجة البداهة فكما أثبتنا في "الحقيقة الثالثة" بأن ما يطلبه كل شيء وما هو ضروري لوجوده وإدامة حياته التي يطلبها بلسان استعداده وبلغة حاجاته الفطرية وبلسان اضطراره من الفاطر ذي الجلال يأتيه بميزان خاص دقيق، وبمعايير ومقاييس معينة، أي أن هذا القسم من العدالة ظاهر ظهور الوجود والحياة.

أما القسم السلبي فهو: تأديب غير المحققين، أي إحقاق الحق بإنزال الجزاء والعذاب عليهم، فهذا القسم وإن كان لا يظهر بجلاء في هذه الدنيا إلاَّ أنَّ هناك إشارات وأمارات تدل على هذه الحقيقة. خذ مثلاً سوط العذاب وصفعات التأديب التي نزلت بقوم عاد وثمود بل بالأقوام المتمردة في عصرنا هذا، مما يظهر للحدس القطعي هيمنة العدالة السامية وسيادتها".^(١)

فالعدل إذن يقتضي خلق الآخرة - كما يقول "النورسي" - ويقتضي وجودها بقوة، وإلاَّ فقد "العدل" مبرر وجوده، وسرَّ تجليه في الكون والحياة والإنسان.

و"النورسي" يعيد "الإنسان" من أن يكون رأيه في "الخلقة" مجرداً من معاني "الألوهية" فيعيش مسلوب نور البصيرة فلا يقوى على رؤية مجاري العدل في الأشياء، فيخطئ مراد الكون، ويلتبس عليه ما يجب عليه عمله في هذه الدنيا، وماذا ينتظره من ثواب أو عقاب في الآخرة.

١٠ - القوامون على أعمدة الحضارة:

ففي حياة هؤلاء الذين يزعمون أنَّهم قَوَّامُونَ على "أعمدة الحضارة" أشياء كثيرة تنافي جوهريات هذه الحضارة، ممَّا ترك تأثيراً مدمراً على أخلاقيات الإنسان، وحال بينه وبين الكشف عن علوية مصادره الأخلاقية، فنجم عن ذلك همجيات سلوكية حولت مدن الحضارة الكبرى إلى ما يشبه غابات خرافية تتصارع فيها الغرائز والرغبات حتَّى أنَّ "جوهر الإنسان" في فزع اليوم من أن تطاله هذه الهمجيات وتفرغه من

(١) الكلمات هامش ص ٩١

مضمونه الإنساني الذي فطر عليه، بينما يظل "العدل" تاج الحضارات، ومنارات المدنيات يعاني من الإهمال والامتهان.

إن آية استواء النفس وسلامتها من الانحراف سرعة انجذابها إلى ما يلوح لها من علامات العدل والحق، ولأنَّ "العدل" فيه من قوة "الكونية" ما يجعله قوي التأثير - كالضوء والحرارة- في الأنفس والآفاق، لذا استوجب أن يحظى بمزيد من التجلّة والاحترام من قبل القوى الحضارية التي تهيمن اليوم على أخلاقيات العالم، وما كان الكون ليكون على هذه الدرجة من الضبط الهندسي والحسابي لو لم يُحظَّ بتجلّيات اسمه تعالى "العدل" كما يقول "النورسي".

صحيح أننا لا نستطيع أن نوقف الزمن ونخضعه لما نريد منه إذا كان قد تجاوزنا ومضى متخففاً من ثقل موروثاتنا الأخلاقية، غير أننا نستطيع أن ننشئَ زمناً أخلاقياً جديداً تشكّله أفكارنا، وتبينه أخلاقياتنا ويمكن لنا وللجنس البشري أن نسترشد به ونستظل بظله، وإن كنا اليوم أضعف من أن نقدر على إنشاء مثل هذا الزمن إلا أنَّ الكثير من عناصر القوة لا زالت تختبئ في ثنايا ضعفنا يمكن أن تكشف عن نفسها عندما يحين وقت ذلك.^(٢)

(٢) انظر: الصفحات الآتية من الكلمات: ٨٨، ٩٣، ١١٢، ١١٣، ٢٨٣.